التنقيب في الجلد

أ.د. لطيفة حسين الكندري

"أينمـا كنت فسـيرغب بعضـهم في التنقيب في جلـدك ... فاحـذر أن تدغـدغ غريـزتهم يـا بـني، وحـاذر أن ترضـخ لوطـأة الجمهور" .

أمين معلوف - ليون الأفريقي

تنبع قوة الشخصـية من ذاتهـا الـتي تتـوخى الدقـة وسـماحة الأخلاق، فلا يليـق تقسـيم النـاس حسـب مـذاهبهم وأعـراقهم وأنسابهم وعوائلهم وأموالهم. أساس العدالـة تنقيـة المجتمـع من المجـاملات، ومن نفـوذ الأقربـاء في انجـاز المعـاملات الوزاريـة، وفي تمرير المناقصات التجاريـة، وفي الحصـول على المناصـب. قصة أصلك وفصلك قصة متواصـلة ضـيعت مجتمعـات، وحرمتهـا من طيب الحيـاة. من أين أنت؟ وولـد من أنت؟ بـل ربمـا جـرت هذه الحـوارات على لسـان المعلم عنـدما يسـأل عن هـذا الأمـر، ويظن خاطئا أنه يتحاور مع طلابـه في أمـر محمـود ... مثـل هـذا المعلم لا يسـأل المتعلم: مـاذا قـرأت؟ ومـاذا تعلمت؟ ومـا المهارات التي تتقنها، والفنون التي تستمتع بممارستها؟

ورغم التغـير الاجتمـاعي الكبـير في بنيـة المجتمـع وعقليتـه الباطنة فإن بقايا صراعات النزعـة العنصـرية تكـاد تجـد لهـا أثـرا واضـحا ومخيفـا في أروقـة المؤسسـات التعليميـة وغيرهـا. هـذا النمط التصنيفي في الفكر نجده يتسـتر خلـف تزكيـة الأشـخاص، بل هذه النزعة التصـنيفية ربمـا لهـا دورهـا الفاعـل والفاصـل في تحريك الأصوات إذا اقتربت سـاعة الانتخابـات النيابيـة، وكشـفت "الفزعـة" عن سـاقها!! عنـدما ينبثـق سـلوك الفـرد من نظـرة استعلائية فإنه لا يتوقـف عنـد حـدود القـوانين ولا يخضـع لهـا بـل يلتف عليها بقوة معارفـه وهيبـة أقربائـه. ومن هنـا فـإن الحـرص على تصنيف الناس بطرق فجة، والشغف في الكشف عن شـبكة قرابة فلان وفلان لوثة تجعل البعض يقف معك مستفسرا ليعرف

أصــلك ومــذهبك وعائلتــك، ولا يســألك عن صــنعتك وتخصصــك وانتاجك وسعيك!

وعندما نتعامـل مـع موضـوع الانتخابـات، وإنجـاز المعـاملات تتحرك أمواج الواسطة لتلويث المجتمع وتفكيك أواصره ، وتقليل قدر الحياة المدنية القائمة على عمل المؤسسـات، الـتي لا صـلة لها بالقرابات والمعارف والشخصـانية بـل أسـاس عملهـا النظـام ونزاهة الأداء والشفافية والمساواة.

تعــاني البشــرية من طغيــان النزعــة القوميــة والاتجاهــات العرقية، والمتتبع الفاحص لجـذور كثـير من المجـازر الـتي وقعت عبر التاريخ في شتى بقاع العالم، يجد أنها تحركت بداياتها متأثرة بتلك النزعة الاجتماعيـة البغيضـة. أخـوة الإنسـانية قيمـة عظيمـة تدفع الناس إلى الارتقاء والالتقاء في مشترك نبيل.

أعتقد أن التكسب الانتخابي والوظيفي عبر بوابة القرابة فيه تقزيم لمنجـزات الآخـرين، فالتصـنيف نزعـة موجهـة نحـو تفـتيت وحدة الوطن أساسا. إن هذا البلاء يداهم المجتمعات عموما رغم التقدم المدني الحـاد، ورغم انتشـار السـلوكيات المتحضـرة. من صور أمانة الفكر تفعيل مبادئ حياتية أساسها: قيمتك بقدر جـودة عملك وعطائك وطيب مسـاعيك، وليس في علـو نسـبك، وكـثرة ممتلكاتك. معرفة الأصل والفصل ضرورة لصلة الأرحام والتعارف والتعاون بين النـاس لا التبـاهي بينهم، وليس مـدعاة إلى تحقيـق المغانم والاطاحة بقيم الحياة الدافقة بالإنسانية.

dr.latefah@yahoo.com

@dralkandery